التوحيد في الخطبة الفدكية* للسيدة الزهراء-ع-

Monotheism in the Fadaki Sermon* of - Lady Al-Zahra

م. كريم طاهر البعاج

Kareem Taher Al-Baaj

جامعة القادسية

Al-Qadisiyah University

الكلمات المفتاحية: التوحيد، الخطبة، الفدكية

Keywords: monotheism، sermon، Fadaki.

الملخص:

– إنّ الوجود كله واقع على التوحيد، مشتمل على مراتبه، وإنّ جميع الموجودات مجبولة عليه، مخلوقة لأجله.

– بعد أَنْ استهلّت السيدة الزهراء –ع– خطبتها الفدكية بحمد الله تعالى، وشكره، والثناء عليه تخلصت إلى كلمة التوحيد.

– أكدت السيدة الزهراء –ع– في خطبتها أنّ ثمرة كلمة التوحيد هي الإخلاص عبر أسلوب التقديم: (كلمةٌ جعلَ الإخلاصَ تأويلها، وضمَّن القلوب موصولها، وأنارَ في الفكر معقولها).

– إنَّ دلالة قول السيدة الزهراء –ع–: (وضمَّنَ القلوبَ موصولها) أَنّ الله تعالى أودع القلوب موصول كلمة التوحيد وهو: الإذعان.

– إنّ دلالة قول السيدة الزهراء –ع –: (وأنار في الفكرَ معقولها)؛ أنّ الله تعالى أضاء في الأذهان البراهين والأدلة على مضمون كلمة التوحيد.

– عَرَضت السيدة الزهراء –ع– في خطبتها بالذين استنصرتهم فخذلوها: (وفهتم بكلمة الإخلاص)؛ في تعبيرها –ع– عن كلمة التوحيد بكلمة الإخلاص لفت إلى أَنّ إيمان هؤلاء المتخاذلين عن نصرتها، لم يكن عن قلوبهم.

Abstract:

- All existence is based on monotheism، including its levels، and all beings are conditioned on it، created for it.

- After lady of Zahra – praise be- began her sermon by praising God Almighty، thanking Him، and praising Him، she concluded the word of monotheism.

- In her sermon، lady of. Zahra -peace be upon her- confirmed that the fruit of the word of monotheism is sincerity through the method of presentation: (a word that made sincerity its interpretation، ensured the connection of hearts، and illuminated in thought its reasonableness).

- The significance of the saying of Al-Zahra -peace be upon her: (Include the connected hearts) is that God Almighty deposited the hearts with the word Tawheed، which is: submission.

- The significance of the saying of Lady Al-Zahra - peace be upon her: (And enlighten the mind in its reasonableness); That God Almighty has illuminated in the minds the proofs and evidence for the content of the word monotheism.

-In her sermon، Zahra offered to those whom she sought help، and they let her down: (And he paid attention to the word of sincerity); In her expression about the word of monotheism with the word sincerity، he pointed out that the faith of those who failed to support it، was not from their hearts

المقدمة:

تتوافر الخطبة الفدكية للسيدة الزهراء –ع– على أهمية أدبية وعلمية، أما أدبيتها فهي من طراز البلاغة النبوية كأنها –ع– تفرغ عن لسان أبيها –ص – أو عن لسان أمير المؤمنين –ع–؛ وأما علميتها فتكمن في اكتنازها بالبحور التوحيدية والأصولية، والحجاجية.

ولما كانت الخطبة الفدكية بهذه الأهمية؛ فهي جديرة بالبحث العلمي الرصين؛ لقد اخترنا لبحثنا موضوعاً مهماً هو التوحيد في الخطبة الفدكية للسيدة الزهراء –ع– وقد انتظم البحث بعد هذه المقدمة في مبحثين: المبحث الأول – في تعريف التوحيد وشرفه وفضله.

المبحث الثاني – كلمة التوحيد في الخطبة الفدكية للسيدة الزهراء –ع–.

نسأل الله تعالى أَن يجعلنا من حملة علوم نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين؛ والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول– في تعريف التوحيد وفضله وشرفه:

التوحيد لغةً واصطلاحاً:

لعلَّ الإشارة إلى أنَّ الباحث يتعذر عليه تعريف التوحيد تعريفاً جامعاً مانعاً تعدُّ من نافلة القول؛ لأنَّ حقيقة التوحيد أعظم من أَنْ يُعبّر عنها بعبارة؛ أو يومي إلى تعريفها بإشارة لأَنَّ حقيقة التوحيد مُنزّهة عن أَنْ تصل إلى كُنهها العقول والأفهام، مقدّسة عن أَن تظفر بمعرفتها الأفكار والأوهام[1].

التوحيد لغة:

التوحيد في اللغة –مصدر من (وَحَدَ) وهو الإيمان بالله وحدَه لا شريكَ له[2]؛ ومِن معاني التوحيد في اللغة –أيضاً– جعل شيء ما واحداً[3]؛ وبحسب تعبير الشريف الجرجاني: التوحيد في اللغة: الحكم بأَن الشيء واحدٌ والعلم بأنّه واحد[4].

التوحيد في الاصطلاح:

إنَّ المعنى المطابق للتوحيد –لغة واصطلاحاً– هو جعل الشيئين شيئاً واحداً، لأنَّ (توحيد) مصدر من (وَحَدَ)؛ والمصدر لابدّ له من إفادة ذلك[5].

- عرّف علماء الشريعة التوحيد بحسب الظاهر بأنه نفي آلهة كثيرة وإثبات إله واحد؛ يقول أهل الظاهر: (لا إله إلاّ الله) لقوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[6] وهذا هو توحيد أهل الشريعة الموسوم بـ (التوحيد الإلوهي).

وثمة تعريف للتوحيد بحسب الباطن –الذي هو طريق الأولياء– لنفي وجودات كثيرة واثبات وجود واحد. يقول أهل الباطن: ((ليس في الوجود سوى الله)) لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[7] وهذا توحيد أهل الطريقة الموسوم بـ (التوحيد الوجودي).

وعلى كلا التقديرين –أي بحسب الظاهر وبحسب الباطن –(لفظ التوحيد) صحيح واقع مطابق، لأنه نفي وجود (الغير) من الآلهة وغيرها، ذهناً وخارجاً، ظاهراً وباطناً، وإثبات وجود الحق فيها، وهذا هو المطلوب.
فالمحصلة لا يخرج تعريف التوحيد عن القول: ((التوحيد نفي وجود الغير، وإثبات وجود الحق شريعة وطريقة)) أو ((صيرورة الشيئين شيئاً واحداً)) أو ((جعل وجودين وجوداً واحداً))[8].

شرف التوحيد وفضله:

إنّ الوجود كله واقع على التوحيد، مشتمل على مراتبه، وإنَّ جميع الموجودات مجبولة عليه، مخلوقة لأجله، فهو عنوان الوجود، ومِلاك الإيمان، وثمرة رسالات الأنبياء –ع– الذين ابتعثهم الله تعالى لإظهاره ودعوة الخلق إليه، وإنَّ مدار جميع الكمالات وأساس جميع المقامات –ظاهراً وباطناً– منوطة به وبمراتبه. وإنّ علم التوحيد أرقى العلوم كافة من الرسمية والحقيقية[9]؛ إنه يتعلق بمعرف الله تعالى؛ يقول أمير المؤمنين، وسيّد الموحدين –ع–: ((أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْديقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الإِخْلاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الإِخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَة أَنَّها غَيْرُ المَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوف أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ))[10].

إنَّ التوحيد سر من الأسرار الإلهية تجلّى به الله تعالى على مخلوقاته فأقربه الخلائق قبل الخلق يطلبه الملائكة المقربون وتهفوا إليه أفئدة المخلوقين، دعا إليه الأنبياء والمرسلون تتجلى عظمته في أَنّه أهم صفات الله تعالى إذْ له ارتباط بين الخالق والمخلوق وهو آنسُ شيءٍ للنفس الإنسانية، والأقرب إلى القلوب تتفانى فيه الروح وتنجذب إليه النفوس وتحنّ إلى معرفته العقول، وعلى مراتب عرفانه تتصاعد النفوس إلى الملكوت الأعلى ودرجات القرب لدى جنابه عزّ وجلّ، فما أعظمها مسألة ؟! تتجسد في التوحيد جميع الكمالات الواقعية، وتذوب فيه كل المطالب والغايات، ولعلّ السر في ذلك أنه أودع في الفطرة وأخذ عليه الميثاق وهو من لوازم حب المخلوق لخالقه، بل المخلوقات كلها مظاهر توحيده وصفاته العليا وأسمائه الحسنى، فما أعذبه على النفوس؟! وما أخلبه للقلوب؟![11]

إنَّ علم الأصول أشرف العلوم:

– إنَّ شرف العلم بشرف المعلوم، فكلما كان المعلوم أشرف كان العلم الحاصل به أشرف، فلما كان أشرف المعلومات ذات الباري –تعالى– وصفاته وجب أنَ تكون معرفته وتوحيده أشرف العلوم.

– إنّ العلم إما أَنْ يكون دينياً أو يكون غير ديني، ولا شكَّ في أَنّ العلم الديني أشرف من العلم غير الديني، وأما العلم الديني فإما أنْ يكون علم الأصول أو ما عداه، أمّا ما عدا علم الأصول فإن صحته موقوفة على صحة علم الأصول.

– إنّ شرف الشيء قد يظهر بوساطة خساسة ضده، إذ بضدها تتميز الأشياء، فكلما كان ضد الشيء أخسُ كان هو أشرف، ومن البيّن أنّ ضد علم الأصول هو الكفر والبدعة وهما من أخس الأشياء، فوجب أَنْ يكون علم الأصول من أشرف العلوم.

– إنّ شرف العلم تارة يكون لشرف موضوعه، وتارة لشدّة الحاجة إليه، وتارة لقوة براهينه ودلائله، أما شرف الموضوع كذلك لأنّ المبحوث عنه ذات الله وصفاته وقدسه وعظمته، ولا شك أنها أشرف، وأما شدة الحاجة فظاهر؛ وأما قوة براهين هذا العلم فلأنّ براهينه مركبة من المقدمات البديهية الضرورية، وهي أقوى العلوم والمعارف ثبت أنّ علم الأصول مستجمع خصال الشرف.

– إنّ علم الأصول لا يتطرق إليه النسخ والتغيير، ولا يختلف باختلاف النواحي والأمم بخلاف سائر العلوم فوجب أَنْ يكون أشرف العلوم.

– إنّ الآيات الكريمة الواردة في الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية، وأما الآيات الباقيات فهي في بيان التوحيد والرد على عبدة الأوثان، وأصناف المشركين، وفي إثبات النبوة والمعاد ومسألة القضاء والقدر؛ وأما الآيات الكريمة الواردة في القصص القرآني فالمقصود منها إما التوحيد وإما النبوة، أما على التوحيد فهي الاستدلال بها على قدرة الله وحكمته[12] كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[13].

لقد بسط القرآن الكريم القول في التوحيد وفي أقسام الوحدة المحدودة، وأبطل التشريك بجميع مظاهره بين أقسام الوحدة الحقيقية مع ذكر الأدلّة والبراهين القويمة وبأساليب مختلفة، وقد جعل الإسلام شعاره الشهادة بالوحدانية لله تعالى ونفي ما عداه من الآلهة[14].

– إنّ الله تعالى حكى –في القرآن الكريم– عن أكثر الأنبياء –ع– أنهم كانوا طول أعمارهم مشتغلين بدلائل التوحيد؛ وأما نبينا محمد – ص – فإن اشتغاله بتقرير دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أظهر من أَنْ يحتاج إلى مزيد تقرير فيه؛ وذلك لأنه – ص – كان مُبتلى بالرد على جميع فرق الكفار[15].

عظم ثواب كلمة التوحيد وفضلها:

عن ابن عباس عن النبي – ص – ((ما مِن الكلام كلمة أحب إلى الله عزّ وجلّ من قول: لا إلهَ إلاّ الله، وما من عبد يقول: لا إله إلى الله يمد بها صوته فيفرغ إلا تناثرت ذنبوه تحت قدميه كما يتناثر ورق الشجر تحتها))[16].

والسبب في كون كلمة التوحيد العظيمة أحبّ الكلمات إلى الله عزّ وجلّ لأنها أعلى كلمة وأشرف لفظة نطق بها في التوحيد، دالة على وجوده تعالى مفهوماً وعلى وحدته تعالى منطوقاً، وعلى اشتماله تعالى لجميع

صفات الكمال وتنزهه تعالى عن جميع النقائص ولا نجد في الأذكار والأوراد ما يدل على ذلك دونها لأنها: إما تمجيد أو تنزيه، بخلاف هذه الكلمة فإنها جامعة بينهما منطبقة على جميع مراتب التوحيد[17].

وورد في الحديث المروي عن الإمام الرضا –ع–: ((يقول الله عز وجل لا إله إلا الله حصني فمن دخَل حصني أَمِنَ من عذابي))[18]. ومما ورد في الحديث النبوي الشريف: ((أفضل دعاء أعطيته أنا والنبيون قبلي: أشهد أَن لا إلهَ إلا الله وحدهُ لا شريكَ لهُ لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قدير))[19].

وعندما سألَ المأمون الإمام علي بن موسى الرضا –ع– أن يكتب له محض الإسلام على سبيل الايجاز كتب –ع–:

((إنّ محضَ الإسلامِ شهادة أَنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ وحدهُ لا شريكَ له إلهاً واحداً فرداً صمداً، قيوماً سميعاً بصيراً قديراً قديماً قائماً باقياً (...)))[20].

ومن الإشارات الدالة اللافتة لعظمة كلمة التوحيد قول رسول الله –ص–: ((ما زلت أشفع إلى ربي ويُشفعني حتى أقول: يا ربّ شفعني فيمن قال: لا إله إلا الله فيقول الله تعالى هذه ليست لك يا محمد إنّ هذه لي وعزّتي وحلمي ورحمتي لا أدعُ في النار أحداً قال: لا إالهَ إلا الله))[21].

لقد صارت كلمة التوحيد شعاراً ورمزاً للدين الإسلامي فهي تتردد في الآفاق مرات متعددة يومياً، وكانت راية الرسول –ص – مكتوباً عليها: ((لا إله إلا الله محمد رسول))[22]. وكانت كلمة التوحيد شعار أمير المؤمنين –ع– يقولها في الحرب، ثم يحمل فيورد –والله– مَنْ اتبعه ومَنْ حادهُ حياض الموت[23].

المبحث الثاني– كلمة التوحيد في الخطبة الفدكية للسيدة الزهراء –ع–:

تستهل السيدة فاطمة الزهراء –ع– خطبتها بحمد الله تعالى، وشكره، والثناء عليه؛ والحمد لله تعالى والثناء عليه بالفضيلة وهو أخصُّ من المدح وأعمُّ من الشكر؛ والشكر لا يُقال إلاّ في مقابلة نعمةٍ فكلُّ شكر حمد وليس كلُّ مدح حمداً[24]. أما الثناء فهو ما يُذكر في المحامد فيثنّى حالاً فحالاً ذكره[25]. وقولها –ع–: ((بما قدَمَ...)) أي: بنعم أعطاها العباد قبل أَنْ يستحقوها، ويحتمل أن يكون المراد بالتقديم الإيجاد والفعل من غير ملاحظة معنى الابتداء[26]. والسابغ: الواسع؛ وقولها –ع– ((وسبوغ آلاءٍ أسدَاهَا)) تعبير مجازي.

ومعنى قولها –ع–: ((جَمَّ عَنِ الإحْصَاء عدَدُهَا)) أي كثرَ؛ قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[27]. أي: كثيراً[28]. والتعدية بـ (عن) لتضمين معنى التعدي والتجاوز[29].

– وقولها –ع–: ((نَأَى عنِ الجزاءِ أَمدُهَا)) نأى أي: بعدت مدة جزاء تلك النعم بالشكر نظراً لكثرتها؛ والأمدُ: مُدَّة لها حد مجهول إذا أُطلق، وقد يُحصر نحو أَنْ يقالَ: أَمدُ كذا كما يُقال: زمان كذا[30].

وفي هذا التعبير ثمة إجراء أسلوبي بتقديم شبه الجملة: (عن الجزاء) وأصل التعبير: ((نَأى أمدُهَا عنِ الجزاءِ))؛ ويتوفر هذا الانزياح الأسلوبي على اتساع دلالي: أي: إنَّ مدة جزاء تلك النعم ليس لها حد محصور مُقيد بل هي متسعة مُطلقة.

وبعد الاستهلال تتخلص السيدة فاطمة الزهراء –ع– إلى كلمة التوحيد فعمدت إلى أسلوب التقديم في ثلاثة مواضع:

كَلمَةٌ جَعَلَ الإخْلاصَ تأويلَهَا،

وَضَمَّنَ القُلوبَ مَوْصُولُها،

وأنَارَ في الفِكرِ مَعقُولَها،

إنَّ التقديم هو (انزياح) أسلوبي لتوكيد دلالة معينة: ففي الجملة الأولى تعدُّ مفردة (الإخلاص) بؤرة الدلالة فكان من الضروري تقديمها لتأكيد دلالة أنّ ثمرة كلمة التوجيد هي الإخلاص. وفي المعنى اللغوي لمفردة (الإخلاص) نجد تلازماً بينها وبين كلمة التوحيد: ((وأَخْلَصَهُ وخَلَّصه وأَخْلَص للهِ دينَهُ: أَمحضَهُ. وأخلصَ الشيءَ اختاره (...) والمخْلِص: الذي وَحَّدَ الله تعالى خالصاً ولذلك قيل لسورة: قُل هو الله أحد، سورة الإخلاص (...) وكلمة الإخلاص كلمة التوحيد))[31].

وفي القرآن الكريم نجد أَنَّ حقيقة الإخلاص التبري عن كل ما دون الله تعالى[32].

((والإخلاص من العبد في مقابل الله عزّ وجلّ: هو إخلاص النيّة من الشوائب وتوحيده في التوجه إليه والانقطاع عمّا سواه. والإخلاص من الله المتعال في مقابل العبد: هو التخليص التكويني واختيار العبد تكويناً من بين سائر العباد على صفات ممتازة واستعداد خاص وصدر منشرح يليق بأَنْ يجعل فيه الولاية والرسالة وحقيقة الإيمان وأنوار المعرفة – وهذا المعنى هو المراد من الآيات الكريم:[33]

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾[34]

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[35]

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[36]

أما معنى التأويل فهو من الأوْل أي: الرجوع إلى الأصل ومنه المَوْئِلُ للموضع الذي يُرجع إليه وذلك هو ردُّ الشيء إلى الغايةِ المرادةِ منهُ عِلماً كانَ أو فعلاً))[37]. إنَّ دلالة هذه الجملة الجامعة: ((كَلمَةٌ جَعَلَ الإخلاصَ تَأويلَهَا)): أَنَّ ثمرة كلمة التوحيد هي الإخلاص لأنَّ مَنْ أيقنَ بأنّ الله تعالى هو الخالق والمدبر، وبأنه تعالى لا شريكَ له في الإلهية فحقّ له أن لا يشرك معه في العبادةِ غيرُه، ولا يتوجه في شيء من الأمور إلى غيره[38].

– ((وَضَمَّنَ القلوبَ موصُولَها)):

((ضمَّنَ الشيءَ أودعَهُ كما تودع الوعاء المتاع والميت القبر (...) وكل شيء جعلته في وعاء فقد ضمّنتهُ إياه))[39]. ومعنى المَوْصُول في اللغة: المتصل؛ نقول: وصِل الشيءُ بغيره فاتصلَ. ووصلَ الحبالَ وغيرها توصيلاً: وصَلَ بعضها ببعض. وخيط موَصَّل فيه وصل كثير[40].

إنَّ مادة (وصلَ) تدل على الاتصال؛ أي: اتحاد الأشياء بعضها ببعض كاتحاد طرفي الدائرة. وعكس الاتصال الانفصال؛ وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾[41]. أي: أكثرنا لهم القولَ مَوْصُولاً بعضُه

ببعضٍ[42]. فتكون دلالة قول الزهراء –ع–: ((وضمَّنَ القلوبَ مَوْصُولَها)): إنَّ الله تعالى أودعَ القلوبَ مَوْصُول كلمة التوحيد وهو: الإذعان لظاهر معناها، وباطن أثرها؛ لأن الإيمان ما وقرَ في القلب، وصَدَّقَهُ العمل.

– ((وَأَنَارَ في الفِكرِ مَعقُولَها)):

النور: الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار[43] وأنار بمعنى أضاء ومعنى التفكر في اللغة: التأمل، والاسم الفِكر والفكرة. والمصدر الفَكر بالفتح، وأفكر في الشيء وفكرَ فيه وتفكرَ بمعنى[44].

والفِكرة قوةٌ مطرقةٌ للعلمِ إلى المعلومِ، والتفكرُ جولانُ تلك القوةِ بحسب نظرِ العقلِ وذلك للإنسانِ دونَ الحيوانِ، ولا يُقالُ إلا فيما أنْ يحصُلَ له صورة في القلب[45]. فتكون دلالة الفقرة السابقة: أنّ الله تعالى أضاء أو أوضح في الأذهان البراهين والأدلة والآيات التي لو تأمل فيها الإنسان لاهتدى إلى مضمون كلمة التوحيد.

التعريض في خطبة الزهراء –ع–:

التعريض لغة واصطلاحاً:

التعريض في اللغة هو التلميحُ وهو خلاف التصريح؛ جاء في لسان العرب: ((والمعاريضُ منَ الكلامِ: ما عُرِضَ به ولم يُصرحُ. وأعراضُ الكلام ومَعَاريضُهُ معاريُهُ: كلامٌ يشبهُ بعضُه بعضاً (...) والتعريضُ: خِلافُ التصريح. والمعاريض: التوريةُ بالشيء عن الشيء))[46].

وفي الاصطلاح البلاغي يعني التعريض التمويه و ((هو الإتيان بكلام مُشار به إلى جانب هو مطلوب، وإيهام أَنَّ الغرض جانب آخر وسُمّيَ تعريضاً لما فيه منَ الميل عن المطلوب إلى عُرض –بالضم– أي جانب))[47].

عَمِدت الزهراء–ع– إلى التعريض بالذين خذلوها: الذين استنصرتهم فلم ينصروها وأشارت إلى أنَّ ثمرة كلمة التوحيد هي الإخلاص أي: التبري عن كل ما دون الله تعالى؛ وَعَرضَت الزهراء –ع– بالمتخاذلين:

– ((وَفُهْتُمْ بِكَلمةِ الإخلاصِ)):

وفاهَ بالكلام يفوهُ: لفظ به. يُقال: ما فهتُ بكلمةٍ وما تفوهتُ، بمعنى واحد، أي: ما فتحتُ فمي بها[48]. وفي تعبيرها –ع– عن كلمة التوحيد بكلمة الإخلاص لفتٌ إلى أَنَّ إيمان هؤلاء المتخاذلين عن نصرتها لم يكن عن قلوبهم[49]. إذن لم تكن هذه الكلمة –عند هؤلاء– سوى ألفاظ تلفظُوا بها فحقنوا بها دماءهم.

– ((الممتنع منَ الأبصارِ رُؤيتهُ)):

معنى المُمتنع في اللغة المتعسر: ((وما نعتهُ الشيء ممُانعةً، ومَنَع الشيءُ مناعة، فهو منيع: اعتزَّ وتعسَّرَ))[50]. إنَّ الممتنع في الاصطلاح الكلامي عبارة عن ما لو فرض موجوداً لزم عنه المحال[51]؛ وامتناع رؤية الله سبحانه وتعالى من الأصول التي استفادها الوعاة من المسلمين منَ القرآن الكريم وخطب سيّد الموّحِّدين

أمير المؤمنين –ع–)؛ والفقرة السابقة من خطبة الزهراء –ع– تتسق مع هذا الأصل. قال تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[52].

– ((وَمِنَ الأَلسُنِ صِفَتُه)):

أي الممتنع من الألسن صفته: الظاهر أَنّ الصفة هنا مصدر، ويحتمل المعنى المشهور بتقدير محذوف: أي: بيان صفته[53].

– ((ومِنَ الأوهَام كَيفِيتُهُ)):

في اللغة: ((الوَهمُ: خطراتِ القلب، والجمع أوهام (...) وتوَّهَمَ الشيءَ: تخيله وتمثلَهُ، كانَ في الوجود أو لم يكن، وقال: توّهمتُ الشيءَ وتفرَّستُه وتوسَّمتُهُ وتبينتهُ بمعنى واحد (...) والله عزّ وجلّ لا تدركُهُ أوهامُ العبادِ (...) ويُقالُ: وهِمتُ في كذا وكذا أي: غلِطتُ))[54].

أما في الاصطلاح الفلسفي فالوهم هو قوة جسمانية للإنسان محلها آخر التجويف الأوسط من الدماغ من شأنها إدراك المعاني الجزئية المتعلقة بالمحسوسات كشجاعة زيد وسخاوته[55]، وهي القوة الثانية عند الفلاسفة: الفارابي، ابن سينا، ابن رشد[56].

ويقول صاحب كشاف اصطلاحات الفنون: ((هذا لكن المختار أَنَّ الوهم من قبيل التصور))[57].

أما (الكيف) في الاصطلاح الكلامي فهو منَ الماهيات البسيطة التي لا يُمكن أَنْ تحدّ لأنَّ الحد يتألف من أجزاء المحدود، والبسيط لا جزء له، بل إنما يُعرف بلوازمهِ البيّنة. ولما كان الكيف من الأجناس العوالي لا يمكن تعريفه إلاّ بالرسم؛ وقد اشتهر في رسمه أنّه ((هيئة قارّة لا يوجب تصورها تصور شيء خارج عنها وعن حاملها، ولا نسبة ولا قسمة في أجزاء حاملها))[58]. فالكيفية حال الشيء وصفته من الكيف الذي يستفهم بها عن حالة الشيء وصنعته، وتستعمل مصدراً أيضاً وهو الأصل لمكان الياء والتاء[59].

وهكذا تكون دلالة الفقرة: ((وَعَنِ الأَوهَامِ كَيفِيَتهُ)) أنّه يمتنع من الأوهام كيفيته تعالى، أي أَنّ القوى الوهمية والقوة العقلية كلها عاجزة عن إدراك كيفيته تعالى، فهو تعالى فوق الوهم أو التصور؛ وهذا يوهم أنّ لله تعالى كيفية ولكن لا تدركها العقول والأوهام أو التصورات، وليس ذلك بمراد البتة إذ ليس لله تعالى كيفية وإلا لكان محل العوارض الحادثة الكونية، فيلزم فيه التركيب والحدوث، بل المراد نفي أصل الكيفية من باب السالبة بانتفاء الموضوع، أي: لا كيفية له تعالى حتى تدرك[60].

وفي مناظرة للإمام الرضا –ع– لأحد الزنادقة حين سأله عن الله تعالى: ((كيف هو؟ وأينَ هو؟ فقال: إنّ الذي ذهبت إليه غلط هو أين الأين بلا أين وكيف الكيف بلا كيف فلا يُعرف بكيفوفية ولا بأينونية ولا يدرك بحاسة ولا يُقاس بشيء))[61].

– ((ابتدعَ الأَشْياءَ لا مِنْ شَيءٍ كَانَ قبلَهَا)):

الإبداع في اللغة: ((إنشاء صنعة بلا احتذاءٍ واقتداء ومنه قيل رَكيَّةٌ بديعٌ أي: جديدة الحفر، وإذا استعمل في الله تعالى فهو ايجادُ الشيء بغير آلة ولا مادّةٍ ولا زمانٍ ولا مكانٍ وليس ذلك إلا لله [تعالى]: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلۡأَرۡضِ﴾[62]))[63]؛ وأبدع الشيءَ وابتدعه: اخترعَهُ، وابتدعَ فلانٌ هذه الرَكيّة، وسقاء بديع: جديد[64] و((الشيءُ قيل هو الذي يصحُّ أَنْ يُعلم ويُخبَر عنه وعند كثير من المتكلمين هو اسم مُشتركُ المعنى إذا استعمِلَ في الله [تعالى] وفي غيرِهِ ويقعُ على الموجود والمعدوم. وعند بعضهِم الشيءُ عبارة عن الموجود وأصلهُ مصدرُ شاء وإذا وُصِفَ به تعالى فمعنَاهُ شاءَ وإذا وصِفَ به غيرُهُ فمعناهُ المَشيءُ وعلى الثاني قوله [تعالى]: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[65] فهذا على العموم بلا مَثنويّةٍ إذا كانَ الشيءُ هَهنا مصدراً في معنى المفعول. وقولهُ تعالى: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗ﴾[66]، فهو بمعنى الفاعل كقوله [تعالى]: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[67]))[68].

وقول الزهراء –ع– ((لا من شيء كان قبلها)) أي: لا من شيء آخر أي لا من مادة، ولم تقل –ع–: (من لا شيء) لكي لا يتوهم أَن لا شيء –وهو العدم– مادة الأشياء، لأن (مِن) تدخل على المادة، فقدمت –ع– النفي على (مِن) إفادة أَنَّ كون الأشياء مِن مادة منفي، بل ابتداؤها إنما هو بلا مادّة.[69]

– ((وأنشأها بلا اختذاء أَمثلة امتثلها)):

((الإنشاء: إيجاد الشيء وتربيتُهُ وأكثر ما يُقال ذلك في الحيوان، قال [تعالى] ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾[70]، وقال [تعالى]: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾[71]))[72]. ومعنى الحذو: التقدير والقطع[73]. واحتذى مثاله، أي: اقتدى به[74].

ويبدو من هذه الفقرة من خطبة الزهراء –ع– أنّ الإنشاء هو الإيجاد بلا مثال، فالله تعالى أنشأ الأشياء بلا مادة سابقة، ولا اتباع صورة موجودة قبلها سواء أَكانت الصورة من صنع نفسه –تعالى– أم من صنع غيره؛ وأما الإبداع فهو الايجاد بلا مادة[75].

إنّ الزهراء –ع– آثرت التعبير بهاتين المفردتين: (ابتدع، انشأ) لتكونا بؤرتي الدلالة: إنّ خلق الأشياء بلا مادة، وايجادها بلا مثال سابق أَبلغ حجة في عظمة الله تعالى وقدرته.

– ((كوَّنَهَا بِقُدرتِهِ، وَذَرَأَهَا بِمشيئتِهِ)):

التكوين هو الإحداث والايجاد؛ فنقول: كوَّنَ الله تعالى الشيءَ بمعنى: أحدثَهُ وأوجدَهُ بَعد أَنْ لم يكُن؛ ((وكوَّنَ الله [تعالى] العالمَ: أحدثه فتكوَّنَ))[76]. وَحَدَّ الشريف الجرجاني التكوين بقوله: ((إيجاد شيء مسبوق بالمادة))[77].

وأما الذّرءُ فإظهارُ الله تعالى ما أبداهُ، يُقال: ذرأ الله تعالى الخلق أي: أَوجَدَ أشخاصه.[78]. قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾[79].

أما المشيئة فهي عند أكثر المتكلمين كالإرادة[80]؛ بيدَ أنَّ الشريف الجرجاني يُميز تمييزاً دقيقاً بينهما على الرغم من أن المفردتين تعدّان من المترادفات في اللغة: ((مشيئة الله عبارة عن تجلّي الذات والعناية السابقة لإيجاد المعدوم أو إعدام الموجود، وإرادتُهُ عبارة عن تجليه لإيجاد المعدوم، فالمشيئة أعمُّ من وجه الإرادة، وَمَن تتبَّع مواضع استعمالات المشيئة والإرادة في القرآن يعلم ذلك))[81].

وهكذا تكون دلالة عبارة الزهراء –ع–: أنَّ الله تعالى أحدث الأشياء وأوجدها بقدرته؛ من غير حاجة منه تعالى إلى ذلك.

- **((تَثبيتاً لحكْمتِهِ)):**

الثبات ضدُّ الزوال يُقالُ: ثبتَ يثبتُ ثباتاً[82]؛ والحكمة في دلالتها اللغوية مشتقة من الإحكام وهو إتقان الفعل[83]. والحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل؛ فالحكمة من الله تعالى هي معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام؛ ومعنى كون اللهُ تعالى حكيماً بخلاف المعنى إذا وصِف به غيره، وبلحاظ ذلك قال الله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾[84، 85].

- **((وَتنبيهاً عَلَى طَاعتِه، وإظهاراً لِقُدرتِهِ)):**

أي: أنّ ذوي العقول يتنبهون وهم ينظرون إلى مصنوعاته بأن شكر خالقها والمنعم بها واجب عليهم[86]، وأن هذه الأشياء المصنوعة تظهر قدرة الله تعالى وعظمته.

- **(وَحِيَاشَةً مِنهُ إلى جَنَّتِهِ)):**

واللافت في تعبير الزهراء –ع– في المستوى الأسلوبي في محوره العمودي دقة انتقائها لمفردة (حياشة) ففي المستوى الأسلوبي الدلالي يُقال: حَشَّ عليَّ الصيد؛ ومعناه: ضمُّ الصيد من جانبيه [87]. وأما في المستوى النحوي بهذه المفردة (حياشة): مفعول لأجله، فكأنَّ الناسَ ينفرون بطبيعتهم عمّا يوجب دخول الجنة[88].

الهوامش:

* في نص الخطبة الفدكية نحيل إلى بحار الأنوار: يُنظر: بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ط2، 1403 هـ، الناشر مؤسسة الوفاء: 250/29، 252، 253.

(1) يُنظر: جامع الأسرار ومنبع الأنوار، سيد حيدر آملي، 1969 قسمت إيران: 70.

(2) يُنظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري، ط3، 1414 هـ، دار صادر، بيروت: مادة (وَحَدَ).

(3) يُنظر: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، الناشر، مكتبة لبنان ناشرون: 1/ 528.

(4) يُنظر: التعريفات: السيد الشريف أبي الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني، وضع حواشيه وفهارسه، محمد باسل عيُون السود، ط3، 2009، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان: 73.

(5) يُنظر: جامع الأسرار: 75.

(6) ص: 5.

(7) القصص: 88.

(8) يُنظر: جامع الأسرار: 76.

(9) يُنظر: جامع الأسرار: 49.

(10) يُنظر: نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية د. صبحي الصالح، ط1، 1983م، دار الكتب اللبناني، بيروت–لبنان: 39.

(11) يُنظر: التوحيد في القرآن، السيد عبد الأعلى السبزواري الموسوي، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان: 1.

(12) يُنظر: أسرار التنزيل وأنوار التأويل، فخر الدين الرازي، تحقيق محمود أحمد محمد وآخرون، دار الرشيد، العراق: 27–30.

(13) يوسف: 111.

(14) يُنظر: التوحيد في القرآن: 13.

(15) يُنظر: أسرار التنزيل: 38.

(16) التوحيد، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بابويه القمي، تحقيق الشيخ علي أكبر غفاري، ط1، 2006م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت–لبنان: 26.

(17) يُنظر: جامع الشتات، الشيخ الخواجوئي، الناشر بي نا، إيران: 82.

(18) الصحيفة الرضوية، السيد مرتضى المجتهدي السيستاني، نقله إلى العربية ضياء الزّهاوي، ط، 1432هـ.ق. الناشر ألماس: 379.

(19) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، مؤسسة الأعلمي، بيروت–لبنان: 2/ 351.

(20) عيون أخبار الرضا –ع–، الشيخ الصدوق ابن بابويه القمي، منشورات الشريف الرضي: 1/ 129.

(21) أسرار التنزيل: 51.

(22) نظام الحكومة النبوية، عبد الحي الكتاني، الناشر دار الأرقم بن أبي الأرقم: 266.

(23) يُنظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان: 5/ 177.

(24) يُنظر: المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، راجعه وقدم له أحمد عبد الرحمن، المكتبة التوفيقية، القاهرة–مصر: مادة (حمد).

(25) يُنظر: المفردات: مادة (ثنا).

(26) يُنظر: بحار الأنوار: 250/29.

(27) الفجر: 20.

(28) يُنظر: المفردات: مادة (جم).

(29) يُنظر: بحار الأنوار: 250/29.

(30) يُنظر: المفردات: مادة: (أمد).

(31) يُنظر: لسان العرب: مادة (خلص).

(32) يُنظر: المفردات: مادة: (خلص).

(33) التحقيق في كلمات القرآن، الشيخ حسن المصطفوي، ط1، 1417هـ، وزارة الثقافة والإرشاد، طهران: 102/3.

(34) مريم: 51.

(35) يوسف: 24.

(36) الحجر: 40.

(37) يُنظر: المفردات: مادة: (أَوَّل).

(38) يُنظر: بحار الأنوار: 252/29.

(39) لسان العرب: مادة: (ضمن).

(40) أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم محمود بن عبد العزيز الزمخشري، 1420هـ–2000م، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت–لبنان: 678.

(41) القصص: 51 (مقطع).

(42) يُنظر: المفردات: مادة: (وصل).

(43) يُنظر: المفردات: مادة (نور).

(44) يُنظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور، الناشر دار العلم للملايين، بيروت–لبنان: مادة: (فكر).

(45) يُنظر: المفردات: مادة: (فكر).

(46) لسان العرب: مادة: (عرض).

(47) أنوار الربيع في أنواع البديع، ابن معصوم المدني، ط1، 1969م، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، 450/1.

(48) يُنظر: الصحاح: مادة (فاه).

(49) يُنظر: بحار الأنوار: 265/29.

(50) لسان العرب: مادة: (منع).

(51) يُنظر: المبين في اصطلاحات الحكماء والمتكلمين، علي بن محمد الآمدي، تحقيق عبد الأمير الأعسم، 1989، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: 327/1.

(52) الأنعام: 103.

(53) يُنظر: بحار الأنوار: 253/29.

(54) لسان العرب: مادة: (وهم).

(55) يُنظر: التعريفات: 250.

(56) يُنظر: المبين في اصطلاحات الحكماء والمتكلمين، هامش (681): 362/1.

(57) كشاف اصطلاحات الفنون: 1808/2.

(58) يُنظر: نهاية المرام في علم الكلام، العلّام الحلي، تحقيق فاضل العرفان، 462/2.

(59) يُنظر: شرح خُطبة الزهراء –ع– تأليف العلّام المجلسي، القاضي النعمان المغربي الأنصاري التبريزي، تحقيق السيد باقر الكيشوان الموسوي، ط2، 2012م، مؤسسة البلاغ، بيروت–لبنان: 91.

(60) يُنظر: المرجع السابق: 92.

(61) الكافي، الشيخ الكليني، تحقيق غفاري علي أكبر، ط4، 1407 ق، الناشر دار الكتب الإسلامية، طهران: 78/1.

(62) البقرة: 117 (مقطع)، الأنعام: 101.

(63) يُنظر: المفردات: مادة: (بدع).

(64) يُنظر: أساس البلاغة: 32.

(65) الرعد: 16 (مقطع).

(66) الأنعام: 19.

(67) المؤمنون: 14.

(68) المفردات: مادة: (شيء).

(69) يُنظر: شرح خُطبة الزهراء –ع–: 94.

(70) الملك: 23.

(71) النجم: 32.

(72) يُنظر: المفردات: مادة: (نشأ).

(73) يُنظر: لسان العرب: مادة: (حذذ).

(74) يُنظر: الصحاح: مادة: (حذذ).

(75) يُنظر: شرح خطبة الزهراء –ع–: 95.
(76) أساس البلاغة: 443.
(77) التعريفات: 69.
(78) يُنظر: المفردات: مادة: (ذرأ).
(79) الأعراف: 179.
(80) يُنظر: المفردات: مادة: (شيء).
(81) التعريفات: 214.
(82) يُنظر: المفردات: مادة: (ثبت).
(83) يُنظر: لسان العرب: مادة: (حكم).
(84) التين: 8.
(85) يُنظر: المفردات: مادة: (حكم).
(86) يُنظر: بحار الأنوار: 254/29.
(87) يُنظر: لسان العرب: مادة: (حاش).
(88) يُنظر: بحار الأنوار: 8/3.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم محمود بن عبد العزيز الزمخشري، 1420هـ–2000م، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت–لبنان.
- أسرار التنزيل وأنوار التأويل، فخر الدين الرازي، تحقيق محمود أحمد محمد وآخرون، دار الرشيد، العراق.
- أنوار الربيع في أنواع البديع، ابن معصوم المدني، ط1، 1969م، مطبعة النعمان، النجف الأشرف.
- بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ط2، 1403 هـ، الناشر مؤسسة الوفاء.
- التحقيق في كلمات القرآن، الشيخ حسن المصطفوي، ط1، 1417هـ، وزارة الثقافة والإرشاد، طهران.
- التعريفات: السيد الشريف أبي الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني، وضع حواشيه وفهارسه، محمد باسل عيُون السود، ط3، 2009، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان.
- التوحيد، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بابويه القمي، تحقيق الشيخ علي أكبر غفاري، ط1، 2006م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت–لبنان.
- التوحيد في القرآن، السيد عبد الأعلى السبزواري الموسوي، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان.
- جامع الأسرار ومنبع الأنوار، سيد حيدر آملي، 1969 قسمت إيران.
- جامع الشتات، الشيخ الخواجوئي، الناشر بي نا، إيران.
- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، مؤسسة الأعلمي، بيروت–لبنان.

- شرح خُطبة الزهراء –ع– تأليف العلّام المجلسي، القاضي النعمان المغربي الأنصاري التبريزي، تحقيق السيد باقر الكيشوان الموسوي، ط2، 2012م، مؤسسة البلاغ، بيروت–لبنان.
- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور، الناشر دار العلم للملايين، بيروت–لبنان.
- الصحيفة الرضوية، السيد مرتضى المجتهدي السيستاني، نقله إلى العربية ضياء الزّهاوي، ط، 1432هـ.ق. الناشر ألماس.
- عيون أخبار الرضا –ع–، الشيخ الصدوق ابن بابويه القمي، منشورات الشريف الرضي.
- الكافي، الشيخ الكليني، تحقيق غفاري علي أكبر، ط4، 1407 ق، الناشر دار الكتب الإسلامية، طهران.
- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، الناشر، مكتبة لبنان ناشرون.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري، ط3، 1414 هـ، دار صادر، بيروت.
- المبين في اصطلاحات الحكماء والمتكلمين، علي بن محمد الآمدي، تحقيق عبد الأمير الأعسم، 1989، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني، راجعه وقدم له أحمد عبد الرحمن، المكتبة التوفيقية، القاهرة–مصر.
- نهاية المرام في علم الكلام، العلّام الحلي، تحقيق فاضل العرفان.
- نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية د. صبحي الصالح، ط1، 1983م، دار الكتب اللبناني، بيروت–لبنان.